منهج الإمام البخاري رحمه الله في استنباط فقه السيرة من كتابه الجامع الصحيح

(دراسة موضوعية انتقائية نموذجية)

Methodology of Imam Bukhari in deriving Fiqh ul Seerah in his book al-Jami al-Sahih

الدكتور إسماعيل محمد أمين*

علي طارق**

Abstract

Al-Jami al-Sahih (usually referred as Sahih Bukhari) of Imam Muhammad b. Ismail al-Bukhari is considered to be one of the authentic books of Hadith. Ulama and Scholars have been serving this book through their academic contributions and intellectual inputs .

The Science of Studying the Seerah of the prophet (PBUH) with deep and analytic way and deriving the deep and applicable meanings and guidance from it is known as Fiqh ul Seerah.

This article attempts to analyze methodology of Imam Bukhari in deriving Fiqh ul Seerah in his book al-Jami al-Sahih by selecting some Ahadith related to Creed, Worship, Transactional Matters, Ethics and Etiquettes. This work is a selective, model and thematic study of some of the Ahadith related to the topics mentioned above to analyze the methodology of Imam Bukhari in deriving the Fiqh ul Seerah in his book al-Jami al-Sahih and the methodology can further be extended to other themes and topics mentioned in al-Jami al-Sahih.

Keywords: Fiqh ul Seerah, al-Jami al-Sahi, Imam Bukhari.

إن موضوع (منهج الإمام البخاري رحمه الله في استنباط فقه السيرة من كتابه الجامع الصحيح) عبارة عن إبراز جهود الإمام البخاري رحمه الله في تجريد أحاديث السيرة الصحيحة، وتقديمها إلى الأمة الإسلامية، واهتمام الإمام في استنباط فقه السيرة من خلال تراجم أبوابه.

* الأستاذ المساعد بقسم الحديث وعلومه بكلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد.

** المحاضر بقسم الحديث وعلومه بالجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد

ولجلالة شأن هذا الإمام الكبير الملقب بأمير المؤمنين في الحديث في تمييز أحاديث السيرة الصحيحة، ثم بحسن استنباطه لفقه السيرة النبوية من عموم وقائع السيرة النبوية في كتابه الجامع الذي تلقته الأمة بالقبول، اختير هذا الموضوع.

يحتوي هذا المقال على التمهيد وأربعة مباحث والنتائج.

أما التمهيد فهو يحتوي على تعريف موجز للإمام البخاري رحمه الله، وكتابه الجامع الصحيح، ومفهوم فقه السيرة.

المبحث الأول: منهج الإمام البخاري رحمه الله في استنباط فقه السيرة في المسائل العقدية والفكرية.

المبحث الثاني: منهج الإمام البخاري رحمه الله في استنباط فقه السيرة في مسائل العبادات.

المبحث الثالث: منهج الإمام البخاري رحمه الله في استنباط فقه السيرة في مسائل المعاملات.

المبحث الرابع: منهج الإمام البخاري رحمه الله في استنباط فقه السيرة في مسائل الأخلاق والآداب.

وأما الخاتمة فهي تشتمل على أهم النتائج والفوائد المستفادة من هذا البحث.

التمهيد

ترجمة مختصرة للإمام البخاري رحمه الله

هو الإمام المحدث الفقيه أمير المؤمنين في الحديث، رأس الحفاظ والمتقين، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه، الجعفي، البخاري، ولد رحمه الله في بخارى سنة أربع وتسعين ومئة، وقد نشأ البخاري يتيما، وتربى في حجر أمه، وأقبل على طلب العلم منذ الصغر فسمع؛ من علماء بلده، ثم رحل إلى علماء الأمصار، وأخذ عن كثير من المحدثين، واشتهر في عصره بالحفظ والضبط التام والعلم الغزير، وقد أثنى عليه أئمة الإسلام ثناء عظيما في علمه، وزهده، وصلاحه، وخاصة في شهرته في الرجال وعلل الحديث، وترك الإمام البخاري رحمه الله بعده آثارا علمية مباركة، ومن أهمها: كتابه الجامع الصحيح الذي هو أصح الكتب بعد كتاب الله عزوجل، وتوفي الإمام رحمه الله في خرتنك من قرى سمرقند في ليلة عيد الفطر، ودفن يوم

الفطر سنة ست وخمسين ومائتين، وعاش اثنين وستين سنة، وكانت حياته كلها حافلة بالعلم معمورة بالعبادة فجزاه الله عن الإسلام، والمسلمين خير الجزاء.[1]

تعريف موجز بصحيح البخاري

اشتهر بين الناس قديما وحديثا تسمية الكتاب بصحيح البخاري، واسمه الذي سماه مصنفه هو (الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه) كما يظهر من اسم الكتاب بأنه كتاب جامع لأبواب الدين كله، ولكنه انتخب من هذه الأبواب الأحاديث الصحيحة المسندة فقط، ثم إنه لم يكتف على جمع الأحاديث الصحيحة فقط. بل استنبط من الأحاديث الفوائد الفقهية، والنكت الحكمية، والمعاني العلمية ثم فرقها في أبواب الكتاب كما اشتهر الإمام بتقطيع الأحاديث، واختصارها، واعادتها في مواضع مختلفة. كل ذلك كان يفعله للاستدلال، والاستنباط، ولإبراز فقه أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم حتى اشتهر بين العلماء بأن فقه البخاري في تراجم أبوابه، وقد وضع الله سبحانه له القبول في خلقه، وتلقته الأمة بالقبول، واعترف علماء الأمة بأنه أصح الكتب بعد كتاب الله سبحانه.[2]

مفهوم فقه السيرة

أ- تعريف الفقه لغة واصطلاحا:

---

1 الذهبي، محمد بن أحمد .سير أعلام النبلاء. ت: شعيب الأرنؤوط وغيره، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الحادية عشرة، 1417ھ، ج12 ص393-408 ، البغدادي، أحمد بن على أبو بكر الخطيب. تاريخ بغداد. بيروت: دار الكتب العربي، ج5 ص6 و ج2 ص34 ، المزي، يوسف بن الزكي أبو الحجاج، تهذيب الكمال في أسماء الرجال. ت: د بشار عواد، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1400 ھ، ج24 ص431-435 ، العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر .هدي الساري مقدمة فتح الباري. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1410ھ، ص 664،669.

2 انظر: العسقلاني، هدي الساري، ص 03-16، وانظر أيضا: الشهرزوري، عثمان بن عبد الرحمن أبو عمرو ابن الصلاح. علوم الحديث=مقدمة ابن الصلاح. ت: نور الدين عتر، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى 1406ھ، ص 26.

الفقه بالكسر هو العلم بالشيء والفهم له.[1] والفقه في الاصطلاح هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية، أو هو مخصوص بالعلم الحاصل بجملة من الأحكام الشرعية الفروعية بالنظر والاستدلال.[2]

ب- تعريف السيرة لغة واصطلاحا:

السيرة في اللغة الطريقة والسنة.[3] وفي الاصطلاح: السيرة تعني قصة الحياة وتاريخها، يقال: قرأت سيرة فلان أي تاريخ حياته، السيرة النبوية تعني مجموع ما ورد لنا من وقائع حياة النبي وصفاته الخَلقية والخُلقية مضافا إليها غزواته وسراياه .[4]

ج- تعريف فقه السيرة:

المراد بفقه السيرة: دراسة منهجية علمية لسيرة الرسول وما تنطوي عليه من عبر وعظات ومبادئ وأحكام،[5] وقد صنف في فقه السيرة بعض العلماء، كفقه السيرة للغزالي، وكتاب فقه السيرة لمحمد سعيد البوطي وغيرهما.

المبحث الأول: منهج البخاري في استنباط فقه السيرة في المسائل العقدية والفكرية:

إن الإمام البخاري رحمه الله كان محدثا، وفي نفس الوقت كان فقيها، بل كان من أئمة المجتهدين الكبار، ويظهر فقهه واستنباطه من خلال تراجم صحيحه، حيث يستدل رحمه الله من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الصحيحة، ومن السيرة المطهرة أصولا مهمة، وقواعد لأمور

---

1 الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب. القاموس المحيط. ، بيروت: مؤسسة الرسالة، ص 1250.

2 زيدان، عبدالكريم الدكتور، الوجيز في أصول الفقه، لاهور: مكتبة محمدية، ص 8، الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي، الرياض:دار الصميعي، الطبعة الأولى، 1424، 20/1.

3 الفيروز آبادي. القاموس المحيط. ص 412.

4 إقامة الحجة على العالمين بنبوة خاتم النبيين، المصدر المكتبة الذهبية، ص 2.

5 الجلعود، محماس بن عبد الله، الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، دار اليقين للنشر والتوزيع، ط الأولى، 1407هـ-1987م، ص 468.

الدين، ومن أهمها: أصول العقيدة والقواعد الفكرية، فهي كثيرة، وأنا أذكر هنا شيئا منها، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر والاستيعاب.

الأصل الأول

الذي بدأ به الإمام البخاري رحمه الله كتاب الإيمان في صحيحه، هو القول: (بأن الإيمان قول وفعل أي عمل، ويزيد وينقص). وهذا الأصل الذي ذكره الإمام هو مذهب جمهور أهل السنة والجماعة والسلف الصالح.[1]

وقد استدل الإمام رحمه الله لهذا الأصل بجملة من الأحاديث الصحيحة، والوقائع والأحداث من السيرة النبوية، والآثار الواردة في ذلك. ومن ذلك أنه استدل على ذلك بحديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي : "بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان".[2]

وقد استدل هنا بأن الإسلام مرادف للإيمان، والإسلام قد بني وأسس على خمس دعائم، منها: الشهادتان. وأما بقية الأركان، فهي تتعلق بالأعمال الظاهرة.

ثم ذكر في الباب الذي بعده ما هو أصرح في الاستدلال على أن للإيمان أمورا وشعبا، حيث قال:"للإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان".[3]

وقال العلامة العيني رحمه الله نقلا عن الشيخ قطب الدين رحمه الله:"وجه الدليل أن الشرع أطلق الإيمان على أشياء كثيرة من الأعمال".[4]

---

1 العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1410هـ، ج1 ص14-15، العيني، محمود بن أحمد بدر الدين .عمدة القاري. ط بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1421، ج1 ص174 .

2 البخاري، محمد بن اسماعيل أبو عبد الله الجعفي . كتاب الإيمان ، باب دعاؤكم ايمانكم، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري مع الفتح، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1410هـ، ج1 ص67 رقم الحديث: 8.

3 المصدر السابق، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، ج1 ص129، رقم الحديث: 9.

4 العيني، عمدة القاري، ج1 ص204 .

وقد حدثت حوادث عظيمة في عهد سيدنا ونبينا الكريم ، مما يستنبط منها قواعد، وأحكاما كثيرة. ومن تلك الحوادث: حادثة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، فلما هاجر النبي إلى المدينة المنورة صلى إلى البيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا، ثم أنزل الله على رسوله حكم تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة؛ فتحول النبي والمسلمون إلى الكعبة. ومن المعلوم أن هناك جماعة من المسلمين كانوا يصلون إلى البيت المقدس مدة من الزمن قبل تحويل القبلة، ولكنهم ماتوا، أو قتلوا قبل نسخ القبلة، ومن هنا سأل بعض الصحابة رضي الله عنهم النبي ، هل صلاة هؤلاء إلى البيت المقدس قبل التحويل مقبولة أم لا؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى(وما كان الله ليضيع إيمانكم)، ويقول عن هذه القصة البراء بن عازب رضي الله عنهما: "أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال، وقتلوا، فلم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم)"،[1] وقد سمى الله سبحانه الصلاة إيمانا، فالصلاة جزء من الإيمان.[2]

وقد استدل الإمام البخاري من هذه القصة من السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم على أن الإيمان يشمل الصلاة، وهو من الأعمال الظاهرة، حيث بوّب عليه: "باب الصلاة من الإيمان، وقول الله تعالى:(وما كان الله ليضيع إيمانكم) يعني صلاتكم عند البيت".

وقد استدل الإمام البخاري على هذا الأصل من جوانب عديدة، من سيرة المصطفى ، ومن تلك الجوانب من السيرة: قدوم الوفود إلى النبي ، وسؤالهم عن أمور الإسلام، والإيمان، ومن الوفود المشهورة وفد عبد القيس، حيث قدموا على النبي ، وقد روى هذه القصة الإمام البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: أن النبي رحب بهم: "فقالوا يارسول الله! إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام، وبيننا وبينك كفار مضر، فمرنا بأمر فصل، نخبر به من ورائنا، وندخل به الجنة، وسألوه عن الأشربة، فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع، أمرهم بالإيمان بالله

---

1 البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان، ج1 ص 128، رقم الحديث : 40.

2 انظر:العسقلاني، فتح الباري، ج1 ص129، العيني، عمدة القاري، ج1 ص376، ابن بطال، علي بن خلف أبو الحسن، شرح صحيح البخاري، الرياض: مكتبة الرشد، الطبعة الثانية، 1423، ج1 ص97.

وحده، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، و إيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس."[1]

ومن سياق هذه القصة يظهر بأن وفد عبد القيس قدم على النبي قبل فتح مكة، كما جزم بذلك القاضي أبو بكر ابن العربي.[2] وقد ذكر النبي الأعمال الظاهرة في تفسير الإيمان.[3] وبوب الإمام البخاري بقوله: (باب أداء الخمس من الإيمان)

الأصل الثاني: أهمية إصلاح العقيدة

إن إصلاح العقيدة وتصحيحها من شوائب الشرك من أهم أمور الدين؛ لأن العقيدة هي أساس الدين، كما دلت عليه النصوص الشرعية الكثيرة من الآيات والأحاديث والوقائع التاريخية من سيرة نبينا العطرة. وقد بدأ النبي دعوته بإصلاح العقيدة، ودعى الناس إلى توحيد الله سبحانه، كما هو منهج الأنبياء والرسل السابقين. وكان النبي يهتم بالعقيدة أكثر من غيرها، وله أمثلة كثيرة في سيرته ، وقد أورد الإمام البخاري في كتاب التفسير، باب(وأنذر عشيرتك الأقربين) حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه قصة جمعه لقبائل قريش، وذلك بعد نزول قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين)، فدعاهم إلى توحيد الله سبحانه، وبين لهم بأنه لا يغني لهم من الله شيئا، فخص منهم أقاربه الأقربين، ثم عمم جميع قريش: "قام رسول الله حين أنزل الله (وأنذر عشيرتك الأقربين) قال: يامعشر قريش اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئا". ثم خص بني عبد مناف، وعمه عباسا، وعمته صفية، وبنته فاطمة، حيث قال لها: "يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئا".[4]

وكما أننا نجد في السيرة النبوية بأن الوفود تقدم على النبي ؛ فيعلمهم أمور دينهم، وكذلك نجد أن النبي كان يرسل آحادا من الصحابة إلى الأماكن والمناطق البعيدة، ليدعوهم إلى الإسلام.

---

1 العسقلاني، فتح الباري، ج1 ص172.

2 العسقلاني، فتح الباري، ج1 ص178.

3 ابن بطال، شرح صحيح البخاري، ج1 ص118.

4 البخاري، صحيح البخاري، ج8 ص643، رقم الحديث :4771.

وقد بدأ الإمام البخاري كتاب التوحيد في صحيحه بباب: (ماجاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى)، وأورد فيه حديث معاذ رضي الله عنه حيث بعثه رسول الله إلى اليمن، فأرشده إلى منهج الدعوة إلى الله سبحانه، وأعلمه بأن أهل اليمن أهل كتاب، وعندهم كتاب وعلم، وليسوا بأصحاب جهل، ثم أمره بأن يبدأ دعوته بتوحيد الله سبحانه وتعالى، لأن التوحيد أول واجب على الناس معرفته والإيمان به،[1] فإن هم أطاعوا للتوحيد، أن يدعوهم إلى الصلاة، ثم إلى الزكاة إلى آخر الحديث، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.[2]

ومن هنا عرفنا أن إصلاح العقيدة هو المهم، وهو الأساس لبقية شرائع الدين؛ فهي نقطة مهمة وأساسية في فقه السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

الأصل الثالث

أشار الإمام البخاري رحمه الله إلى فائدتين عظيمتين لأسماء الله سبحانه تعالى: وهما تعتبران من أهم فقه سيرة نبينا المتعلق بالمسائل العقدية والفكرية، وهما كالتالي:

أ: أشار رحمه الله إلى أن أهم فوائد أسماء الله الحسنى، أن لله مائة اسم إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة، كما أورد في ذلك حديثا عن أبي هريرة رضي الله عنه، ثم بوّب الإمام البخاري: (باب أن لله مائة اسم إلا واحدة)،[3] كأنه يشير مع ذكره للحديث، أن من أحصى هذه الأسماء الحسنى دخل الجنة. ثم أشار البخاري أن من معاني الإحصاء "الحفظ" حيث قال:(أحصيناه: حفظناه)، وإن كان لفظ الإحصاء يطلق على معان أخرى كما ذكرها العلماء، منها قول ابن بطال: الإحصاء يقع بالقول، وكذلك يقع بالعمل. فالإحصاء القولي يحصل بجمعها وحفظها والسؤال بها ونحوها. ويحصل بالعمل لأن لله أسماء يختص بها، كالأحد والقدير ونحوها، فيجب

---

1 انظر: الغنيمان، عبد الله بن محمد، شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، الرياض: دار العاصمة، الطبعة الثالثة، 1428هـ، ج1 ص 32-33 .

2 البخاري، صحيح البخاري، ج13 ص 430، رقم الحديث : 7372.

3 المصدر السابق،ج13 ص 468، رقم الحديث : 7392.

الإقرار بهذه الأسماء، والخضوع عندها، كما أن لله أسماء يستحب الاقتداء بها، والتحلي بمعانيها، كالرحيم والكريم ونحوها. [1]

ب: وذكر الإمام البخاري بأن من فوائد أسماء الله الحسنى أنه يمكن للمسلم أن يسأل الله سبحانه بواسطة أسمائه، وأن يستعيذ بهذه الأسماء المباركة من الشر. وهذا من أهم فوائد الأسماء الحسنى، وقد بوّب الإمام البخاري بقوله: (باب: السؤال بأسماء الله تعالى والإستعاذة بها). واستدل لهذا الأصل بأحاديث متعددة، منها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي : " إذا جاء أحدكم إلى فراشه، فلينفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات، وليقل باسمك ربي وضعت جنبي...". واستدل الإمام البخاري بقوله: "باسمك ربي"، بأن النبي كان يسأل الله سبحانه باسمه يعني ببركة اسمه، كما استدل الإمام بحديث حذيفة عن النبي : "إذا آوى إلى فراشه، قال: اللهم باسمك أموت وأحيا".[2]

المبحث الثاني: منهج الإمام البخاري في استنباط فقه السيرة في مسائل العبادات:

أولا: أهمية الصلاة في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم:

ومن المعلوم أن الصلاة ركن من أركان الإسلام الخمسة، بل هي الركن الثاني للإسلام. فأهمية الصلاة وفضلها لا يخفى على المسلم، بل هي مما علم من الدين بالضرورة، وسيرة نبينا مليئة في أهمية الصلاة. وقد استدل الإمام البخاري رحمه الله أهمية الصلاة في سيرته من عدة جوانب، فأذكر منها في هذه العجالة بعضا منها:

1. كان الناس في حياته صلى الله عليه وسلم يأتون إليه لقبول الإسلام، فكان يقبل منهم الإسلام، ثم يبايعهم على أهم أمور الإسلام. وكان صلى الله عليه وسلم أول ما يشترط لآحاد من المسلمين الجدد بعد التوحيد، وإصلاح العقيدة إقامة الصلاة؛ لأنها رأس العبادات البدنية. وقد بوّب على ذلك الإمام البخاري رحمه الله في كتاب مواقيت

---

1 انظر:العسقلاني، فتح الباري، ج13 ص467، ابن بطال، شرح صحيح البخاري، ج10 ص417 .

2 البخاري، صحيح البخاري، ج13 ص367 ، رقم الحديث : 7393-7394.

الصلاة بقوله:"باب البيعة على إقام الصلاة"، واستدل لذلك من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه: " بايعت رسول الله على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم".[1]

2. ومما تتبين أهمية الصلاة من سيرته أن النبي لما قدم المدينة؛ فكان أول عمل عمله أمره ببناء المسجد، وقد أورد الإمام البخاري هذه القصة من حديث أنس رضي الله عنه، وبوّب عليها في كتاب مناقب الأنصار بقوله: "باب مقدم النبي وأصحابه المدينة". بل كان النبي لما نزل بقباء قبل قدومه المدينة بنى مسجد قباء. ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه: "لما قدم رسول الله المدينة نزل في علو المدينة، في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف، فأقام فيهم أربع عشر ليلة، ثم أرسل إلى ملإ بني النجار، فجاؤوا متقلدي سيوفهم، فكأني أنظر إلى رسول الله على راحلته، وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب، فكان يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم، ثم أمر ببناء المسجد، ثم قال: يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا، فقالوا: لا والله نطلب ثمنه إلا إلى الله..." إلى آخر الحديث.[2]

فبناء مسجد قباء، ثم المسجد النبوي في أول مقدمه المدينة، يدل على أهمية الصلاة في سيرة النبي الطيبة.

3. مما تظهر أهمية الصلاة من السيرة النبوية ؛ أن الصلاة فرضت في ليلة الإسراء والمعراج، ومن المعلوم أن الإسراء والمعراج من أعظم نعم الله سبحانه لنبيه الكريم، ومن أعظم ما أكرم الله نبيه ، حيث دعاه إلى فوق سبع السموات، حيث ناجاه ربه، ولما قربه ربه، من حيث المكان والمقام أعطاه أفضل منحة، وعطية منحها إياه وأمته، وهي الصلوات الخمس المفروضة، ولما عرج به رأى الملائكة يعبدون الله من بين قائم وراكع وساجد، فجمع له ولأمته تلك الأحوال الروحانية في ركعة يصليها العبد بشرائطها من الإخلاص والخشوع والطمأنية، ثم إن الصلاة اختصت فرضيتها على النبي بكونها بغير واسطة،

---

1 البخاري، صحيح البخاري، ج2 ص9 ،رقم الحديث : 524.

2 المصدر السابق، ج7 س330،337 ، رقم الحديث : 3932.

بل بمراجعات تعددت إلى الله سبحانه وتعالى.[1] وقد روى قصة الإسراء والمعراج الإمام البخاري رحمه الله في مواطن مختلفة للاستدلال على المسائل والأحكام، ذكرها أيضا في أول كتاب الصلاة من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وبوّب عليه بقوله: "باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء؟" وفيه مراجعة نبينا الكريم مع موسى في تخفيف الصلاة، وفيه: فقال الله عز وجل: "هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي".[2] وفي لفظ في كتاب مناقب الأنصار باب المعراج: "أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي".[3]

ويقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: "والحكمة في وقوع فرض الصلاة ليلة المعراج؛ أنه لما قدس ظاهرا وباطنا، حين غسل بماء زمزم بالإيمان والحكمة، ومن شأن الصلاة أن يتقدمها الطهور ناسب ذلك أن تفرض الصلاة في تلك الحالة، وليظهر شرفه في الملإ الأعلى، ويصلي بمن سكنه من الأنبياء وبالملائكة، ولیناجي ربه، ومن ثم كان المصلى يناجي ربه جل وعلا".[4]

4. من المعلوم أن الأذان قد شرع لقصد الاجتماع للصلاة، ولهذا يعتبر الأذان شعارا من شعائر الإسلام الظاهرة، فمشروعية الأذان تدل على أهمية الصلاة في الإسلام.

وقد أورد الإمام البخاري رحمه الله حديث أنس رضي الله عنه الذي يدل على أن من هديه أنه إذا غزا أو قاتل قوما، لم يكن يقاتل حتى يصبح، وينظر، فإن سمع أذانا امتنع عن قتالهم، وإن لم يسمع صوت الأذان أغار عليهم. وقد بوّب الإمام البخاري على هذا الحديث في كتاب الأذان بقوله: "باب ما يحقق بالأذان من الدماء".[5]

ثانيا:أهمية المحافظة بأوقات الصلاة وبالجماعة.

---

1 انظر: العسقلاني، فتح الباري، ج7 ص274 .

2 البخاري، صحيح البخاري، ج1 ص605، رقم الحديث : 449.

3 المصدر السابق، ج7 ص255 ، رقم الحديث : 3887.

4 العسقلاني، فتح الباري، ج1 ص606.

5 البخاري، صحيح البخاري، ج2 ص114، رقم الحديث : 610، وانظر: العسقلاني، فتح الباري، ج2 ص115.

كان نبينا الكريم يحافظ على الصلوات في أوقاتها، بل كان يهتم بالجماعة أشد الاهتمام، ويظهر ذلك جليا في حياته وسيرته الطيبة، ومن ذلك يلي:

1. وكان يهتم بأوقات الصلاة، ويراعيها أشد الرعاية، ولكنه لما انشغل بقتال المشركين يوم الخندق، حتي خرج وقت صلاة العصر شق ذلك عليه حتى دعا عليهم. وكان بعث رحمة للعالمين ومع ذلك يدعو على المشركين. وهذا يدل على شدة اهتمامه بأوقات الصلاة. وقد أورد الإمام البخاري رحمه الله في كتاب التفسير: "باب حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى" حديث علي رضي الله عنه بلفظ: " أن النبي قال يوم الخندق: حبسونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس، ملأ الله قبورهم وبيوتهم أو أجوافهم نارا".[1] وفي صحيح مسلم وأحمد: "ثم صلاها بين العشائين، (بين المغرب والعشاء)".[2]

2. الذي يطالع سيرة رسولنا الكريم الطيبة، يجد أنه يحافظ على جماعة الصلاة، حتى أنه لا يترك الجماعة في حالة الحرب والقتال، إذا تيسر له ذلك. وهذا واضح في مغازيه صلى الله عليه وسلم. وقد أورد الإمام البخاري رحمه الله أحاديث صلاة الخوف المختلفة بأنواعها المختلفة، وبوّب عليها بقوله: " باب صلاة الخوف" وأبوابا أخرى.[3] وبين أن النبي كان لا يترك الجماعة، حتى حالة الخوف وقتال العدو، والمحافظة على الجماعة في هذه الحالة تدل على فرضية الجماعة فرض عين من وجهين: أحدهما: أن النبي صلى بالجماعة في هذه الحالة الشديدة. ولو كانت الجماعة مستحبة لما صلى بها في هذه الحالة. والثاني: أن المصلي صلاة الخوف يترك فيها كثيرا من اللوازم

---

1 البخاري، صحيح البخاري، ج8 ص 246 ، رقم الحديث: 4533.

2 القشيري، مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، مع شرح النووي، بيروت: دار المعرفة، الطبعة الثالثة، 1417هـ، ج5 ص130، كتاب المساجد ، باب ما جاء في الصلاة الوسطى، رقم الحديث: 1425، الشيباني، أحمد بن محمد بن حنبل، المسند، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1416 هـ، ج2 ص54، رقم الحديث: 617.

3 البخاري، صحيح البخاري، ج2 ص545-556 رقم الحديث: 942-943.

والشروط، و يعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطلة في غير هذه الحالة، وما ذاك إلا لتأكد وجوب الجماعة.[1]

ثالثا: التخفيف والتيسير في العبادات:

ومن خصوصيات نبينا الكريم أنه بعث رحمة العالمين، كما قال سبحانه وتعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[2] ولما قيل للنبي : ادع على المشركين، فقال عليه الصلاة والسلام: "إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة".[3] وثبت عن النبي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: "أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة".[4] ومن مقتضيات رحمته : أن جانب التيسير والتخفيف غالب في شريعته، وسيرته الطيبة، وقد أورد الإمام البخاري في كتاب الأدب قول عائشة رضي الله عنها: "ما خير رسول الله بين أمرين قط، إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه". وكان يأمر من يرسله إلى الآفاق والبلدان بالتيسير والتخفيف والتبشير وعدم التنفير، كما أمر بذلك أبا موسى ومعاذا رضي الله عنهما، لما بعثهما إلى اليمن. وقال في قصة بول الأعرابي في المسجد:" فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين"،[5] وبوّب على هذه الأحاديث بقوله: "باب قول النبي : يسروا ولا تعسروا وكان يحب التخفيف والتسري على الناس"،[6]

---

1 العسقلاني، فتح الباري، ج2 ص548 ، السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1421، ص 198.

2 الأنبياء:107.

3 مسلم بن حجاج، صحيح مسلم، ج16 ص366، كتاب البر والصلة، باب من لعنه النبي صلى الله عليه وسلم أو سبه...، رقم الحديث: 6556.

4 البيهقي، أحمد بن الحسين أبو بكر، شعب الإيمان، بيروت: دار الكتب العلمية، ت: محمد السعيد زغلول، الطبعة الأولى،1410ھ، ج2 ص164، فصل في رحمة النبي صلى الله عليه على أمته، رقم الحديث: 1374، الألباني،محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، الرياض: مكتبة المعارف، الطبعة الثالثة، 1425ھ، ج1 ص882، رقم الحديث: 490.

5 البخاري، صحيح البخاري مع الفتح، ج10 ص643 ، رقم الحديث : 6126.

6 المصدر السابق، ج10 ص643 ، رقم الحديث : 6127.

وهناك أمثلة كثيرة في سيرة الحبيب صلى الله عليه وسلم التي تدل على التخفيف والتيسير في العبادات، فأذكر هنا بعضا منها، وهي كما يلي:-

1- كان النبي يخفف، ويوجز الصلاة، ويتمها ويكملها، كما روى ذلك أنس رضي الله عنه، وبوّب عليه الإمام البخاري: "باب الإيجاز في الصلاة وإكمالها".[1] كما أنه يراعي ظروف أفراد المأمومين، كما ثبت عن النبي أنه قال: "إنني أحيانا أدخل في الصلاة، وأريد أن أطول فيها، إلا أسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي، مخافة أن تفتن أمه.[2] وبوب عليه الإمام البخاري: "باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي"، ولما شكي إلى النبي تطويل معاذ الصلاة، فغضب غضبا شديدا، حتى قال :" يامعاذ أفتان أنت". وقال أيضا: "إن منكم منفرين، فمن أم الناس فليتجوز، فإن خلفه الضعيف والمريض والكبير وذوالحاجة". وبوب عليه الإمام البخاري بقوله: "باب من شكا إمامه إذا طوّل".[3] فيه دليل على كرائم عادته ومحاسن أخلاقه في خشيته من إدخال المشقة على نفوس أفراد الأمة، وكان بالمؤمنين رؤوفا رحيما.[4]

2- ومن المعلوم من سيرته أنه كان يصلى الظهر، إذا زالت الشمس، ولكن إذا اشتد الحر؛ فإنه يؤخر الصلاة إلى أن يبرد الوقت، وحتى يظهر الظلال، بل كان يأمر بالإبراد، كما روى الإمام البخاري عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: " أذن مؤذن النبي الظهر، فقال: أبرد أبرد" وقال: "إن شدة الحر من فيح جهنم" فأبردوا عن الصلاة، حتى رأينا فيئ التلول. وبوب عليه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة بقوله:

---

1 المصدر السابق، ج2 ص256 ، رقم الحديث : 708.

2 المصدر السابق، ج2 ص 254 ، رقم الحديث : 708.

3 المصدر السابق، ج2 ص254 ، رقم الحديث : 704-705.

4 انظر: القسطلاني، أحمد بن محمد أبو العباس، إرشاد الساري، بيروت: دار الفكر، الطبعة السادسة، 1403، 61/2.

"باب إبراد الظهر في شدة الحر"،[1] وكان ذلك صدر حرصا منه للتيسر والتخفيف عن أمته، لئلا يلحقهم ضرر من أجل حرارة الشمس.

3- إن الله سبحانه وتعالى فرض على هذه الأمة المرحومة صيام شهر رمضان، إلا أن الله سبحانه خفف على المريض والمسافر أن يفطرا في رمضان، ويقضيان، فقال عز من قائل: **{وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}**.[2]

وإذا قوي المسافر على الصوم في رمضان، فإنه يجوز له صيامه نيلا لأفضلية الوقت، إذا لم يلحقه ضرر أو مشقة، كما نجد ذلك من سيرته وأيامه ، أنه كان يصوم في السفر ويفطر أحيانا، كما أورد الإمام البخاري رحمه الله في ذلك عدة روايات في صومه، وفي فطره في السفر، في أبواب مختلفة.[3] ولكن إذا لم يقدر المسافر على الصوم، ولحقه ضرر ومشقة كبيرة؛ فإنه لا يشرع الصوم في حقه تخفيفا على الأمة. كان النبي في سفر، فرأى زحاما من الناس، ورأى وسطهم رجلا، قد ظلل عليه بسبب تعبه ومشقته، وكان صائما في السفر؛ فاشتد نكيره حتى قال:" ليس من البر الصيام في السفر". وروى هذه القصة جابر رضي الله عنه وبوب عليه الإمام البخاري في كتاب الصوم: "باب قول النبي لمن ظلل عليه واشتد الحر: (ليس من البر الصوم في السفر)".[4]

---

1 البخاري، صحيح البخاري، ج2 ص22 ، رقم الحديث: 535.

2 البقرة: 185.

3 انظر: البخاري، صحيح البخاري، ج2 ص224 -234 .

4 المصدر السابق، ج4 ص229 .

المبحث الثالث: منهج الإمام البخاري في استنباط فقه السيرة في مسائل المعاملات:

ومما علم من الدين بالضرورة أنه كان من الإنسان، ومن جنس البشر، بل إن هذا يعد من نعم الله سبحانه على هذه الأمة، حيث امتن الله سحانه على المؤمنين: **{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ}**[1] و **{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ}**[2]، **{قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا}** [3]فلما كان النبي من البشر سهل على الناس الاقتداء به، واتباعه في جميع شؤونه الفردية والاجتماعية، وهذا يعلمه كل من له أدنى معرفة بفقه سيرته . فكان صلى الله عليه وسلم عنده حاجات بشرية، مثل أفراد الناس، فكان يأكل ويشرب، ويدخل الخلاء، ويتعامل مع الأهل والناس، وكان يبيع ويشتري منهم، ويستقرض، ويحسن القضاء، ويصلح بين الناس، ويقبل الهدية حتى من الكفار، وغير ذلك من المعاملات الحسنة. وكان للنبي الكريم منهج متميز في سلوكه، ومعاملاته مع الآخرين، وتفصيل ذلك كالتالي:

1. كان النبي يتعامل مع أهله وأولاده خير معاملة، وأحسنها كما روت ذلك عائشة[4] وابن عباس[5] رضي الله عنهما عن النبي أنه قال: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خير لأهلي"، وكان خير أب لأولاده، وخير زوج لزوجاته على الإطلاق، وكان يلاطف، ويمازح مع الأهل، كما وردت عن عائشة رضي الله عنها: "كنت ألعب بالبنات عند النبي ، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان

---

1 آل عمران: 164.

2 الكهف: 110.

3 الإسراء : 93.

4 الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى، الجامع، ت: الشيخ أحمد شاكر، بيروت: دار الكتب العلمية، أبواب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب في فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ج5 ص709، رقم الحديث : 3895، وصححه الألباني.

5 القزويني، محمد بن يزيد أبو عبد الله، السنن، ت: محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت: دار إحياء الكتب العربية، أبواب النكاح ، باب حسن معاشرة النساء ،ج1 ص636 ، رقم الحديث :1977، وصححه الألباني.

رسول الله إذا دخل يتقمعن[1] منه، فيسربهن[2] إلي، فيلعبن معي".[3] وبوّب عليه الإمام البخاري رحمه الله بقوله: "باب الانبساط إلى الناس...والدعابة مع الأهل".

وكان في بيته يخدم أهله، ويتعاون معهم في أمور البيت، فإذا حضرت الصلاة قام إليها، كما شهدت بذلك عائشة رضي الله عنها، أورده الإمام البخاري وبوب عليه: "باب كيف يكون الرجل في أهله".[4]وفي لفظ عند أحمد[5] بزيادة: "يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل في بيته، كما يعمل أحدكم في بيته." وفي لفظ: "يرقع دلوه"، وكان النبي يقسم بين نسائه بالسوية، ويقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها، كما روت ذلك عائشة رضي الله عنها.[6]

2. وكان النبي يتعامل مع الناس بالبيع والشراء، وكان يشتري بنفسه. وقد أورد الإمام البخاري أحاديث معلقة وموصولة التي تدل على ذلك، منها أنه اشترى جملا من عمر، واشترى من مشرك شاة، واشترى من جابر جملا، واشترى من يهودي طعاما نسيئة، ورهنه درعه. وبوب على هذه الأحاديث في كتاب البيوع بقوله: "باب شراء الإمام الحوائج بنفسه".[7] وكان يفعل ذلك تعليما وتشريعا للناس، وفيه ما يدل على تواضعه .[8] بل ثبت عنه أنه كان في سفر، فرأى جابر بن عبدالله، أنه أبطأ به جمله وأعياه، فنزل النبي عن جمله، وطعن جمل جابر بمحجنه صلى الله عليه وسلم، وهنا ظهرت معجزة النبي ، فسار جمله مسرعا به، فاشترى منه النبي هذا الجمل بأوقية، واشترط على النبي جابر ظهره إلى المدينة، فلما قدموا المدينة، أمر بلالا أن يزن لجابر

---

1 يتقمعن: أي يتغيبن منه ويدخلن من وراء الستر، العسقلاني،فتح الباري، ج10 ص545 ، الجزري، المبارك بن محممد أبو السعدات ، النهاية في غريب الحديث والأثر، ت: محمود الطناحي وآخر، ط: بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج4 ص109 .

2 فيسر بهن: أي يرسلهن، الجزري ، النهاية في غريب الحديث ، ج3 ص356.

3 البخاري ، صحيح البخاري، ج10 ص644، رقم الحديث: 6130.

4 المصدر السابق، ج10 ص565 ، رقم الحديث 6039.

5 إسناده صحيح، أخرجه أحمد في المسند،ج41 ص269 ، رقم الحديث : 24749.

6 البخاري. صحيح البخاري،ج5 ص272 ،رقم الحديث :2593.

7 المصدر السابق، ج4 ص401 ، رقم الحديث : 2096.

8 العسقلاني، فتح الباري، ج4 ص401 .

الأوقية، فوزن له بلال، فأرجح في الميزان، ثم دعاه النبي ، ويقول جابر :قلت: الآن يرد علي الجمل، ولم يكن شيئ أبغض إلي منه، قال: "خذ جملك ولك ثمنه". وقد أورد الإمام البخاري هذه القصة في عدة مواضع في صحيحه، واستنبط منها عدة مسائل، منها: (باب شراء الدوابّ والحمير)[1] في كتاب البيوع، من كتاب الاستقراض، (باب من اشترى بالدين وليس عنده ثمنه)، (باب حسن القضاء)، ومن كتاب الشروط، (باب إذا اشترط البائع ظهر الدابة إلى مكان مسمى جاز)[2]، وغير ذلك من المسائل المهمة، والأحكام المفيدة في المعاملات التي استنبط من هذه القصة، والتي وقعت في حياته الميمونة، وسيرته العطرة، وكان يبيع ويشتري من المشركين أيضا، كما أورد الإمام البخاري قصة شراء النبي من مشرك شاة، وبوب عليه الإمام البخاري بقوله: (باب الشراء والبيع مع المشركين وأهل الحرب).[3]

3. وكان يستقرض، ويستدين من الناس إذا احتاج إلى ذلك، ويشتري بالنسيئة، بل توفي النبي ، "وكانت درعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير". أخرجه البخاري في آخر كتاب المغازي بعد باب (وفاة النبي).[4] ولكنه يهتم أشد الاهتمام بقضاء الدين؛ فكان حسن القضاء. وكان سمحا إذا اشترى، وإذا باع، وإذا اقتضى. بل كان دعا للذي يتصف بالسماحة والسهولة في المعاملات بالرحمة، فقال: "رحم الله رجلا سمحا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى". وبوب عليه البخاري بقوله: (باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، ومن طلب حقا فليطلبه في عفاف).[5] وسيرته مليئة من أمثلة نموذجية في حسن قضاء الدين، والاهتمام بقضاء الدين، منها: قصة الرجل الذي استقرض منه جملا، فجاء إلى النبي يتقاضاه؛ فأمرله بالقضاء، ولكن الصحابة لم يجدوا إلا بعيرا أحسن وأفضل من بعيره الذي أخذ منه ، فقالوا: لا نجد إلا أفضل من سنه، قال: "أعطوه إياه،فإن خيركم أحسنكم قضاء". فرضي الرجل ودعا له، فقال: أوفيتني أوفاك

---

1 البخاري، صحيح البخاري، ج4 ص402 ، رقم الحديث :2097.
2 المصدر السابق، ج5 ص 393، 75، 68
3 المصدر السابق، ج4 ص516، رقم الحديث :2216.
4 المصدر السابق، ج8 ص191، رقم الحديث 4467.
5 المصدر السابق، ج4 ص384 ، رقم الحديث :2076.

الله. وفيه قصة شراء النبي من جابر بعيره نسيئة، وفيه أنه قال: "وكان عليه دين فقضاني وزادني". وبوب على القصتين الإمام البخاري في كتاب الاستقراض (باب حسن القضاء)، وبوب على القصة الأولى بقوله: (باب هل يعطى أكبر من سنه؟).[1] في الحديث دلالة على مكارم أخلاقه ، وأنه ليس من قبيل قرض جر نفعا إلى المقرض المنهي عنه، لأن المنهي عنه ما كان ذلك مشروطا في القرض، لأن مقصد القرض الإرفاق، فإذا شرط المقرض الزيادة في القدر أو الصفة خرج عن مقصده، فيكون ممنوعا، ولكن فعل ذلك بلا شرط كما هو في السيرة النبوية يكون مستحبا ومن مكارم الأخلاق.[2]

4. وكان يستأجر الأجير إذا احتاج إلى ذلك، بل كان يستأجر المشرك عند الضرورة، ويدفع له الأجر، ويحسن إليه، وقد أورد الإمام البخاري رحمه الله في كتاب الإجارة، قصة هجرته وأبي بكر رضي الله عنه، وفيها أنه وأبا بكر استأجرا رجلا من بني الديل، وهو على دين كفار قريش، هاديا خرّيتا أي ماهرا بهداية الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال. واستدل من هذه القصة على مسألتين وبوب بقوله: "باب استئجار المشركين عند الضرورة، أو إذا لم يوجد أهل الإسلام، وعامل النبي يهود خيبر"، [3] "باب إذا استأجر أجيرا ليعمل له بعد ثلاثة أيام، أو بعد شهر، أو بعد سنة جاز، وهما على شرطهما الذي اشترطاه، إذا جاء الأجل".[4]

5. وكان يحتجم، ويعطي الحاجم أجره، ويحسن إليه، وكل ذلك نجد في سيرة رسولنا الكريم ، وقد أورد الإمام البخاري قصة احتجامه في كتاب الإجارة من صحيحه، روى ذلك أنس بن مالك خادم رسول الله ، وكان الحاجم أبا طيبة، فأمر له بصاع أو صاعين من طعام، ثم كلم مواليه، فخففوا من ضريبته، وجاء عن أنس أيضا: بأنه "أعطى الحجام أجره، ولم يكن يظلم أحدا أجره". واستدل الإمام البخاري من هذه القصة لمسائل مختلفة، وبوب بقوله: "باب ضريبة العبد،

---

1 المصدر السابق، ج5 ص75 ، رقم الحديث :2393 – 2392.

2 انظر:القسطلاني، إرشاد الساري، ج4 ص218 .

3 البخاري، صحيح البخاري، ج4 ص557 ، رقم الحديث :2263.

4 المصدر السابق، ج4 ص558 ، رقم الحديث :2264.

وتعاهد ضرائب الإماء"، باب خراج الحجام"، باب من كلم موالي العبد أن يخففوا عنه من خراجه".[1]

6. كان يتعامل مع عامة الناس معاملة حب، وإخاء، ونصح، فكان يقبل الهدية من أفراد المسلمين، ولو كانت الهدية قليلة؛ لأن الهدية وتبادلها بين المسلمين من أسباب المحبة، والإخاء بينهم، كما قال : "تهادوا تحابوا".[2]روى البخاري بسنده عن أبي هريرة عن النبي أنه قال:"لو دعيت إلى ذراع أو كراع، لأجبت، ولو أهدي إلي ذراع أو كراع لقبلت".[3] وبوب عليه الإمام البخاري: (باب القليل من الهدية)، وكما كان النبي يقبل الهدية، كان يكافئ، ويثيب عليها، كما روت ذلك عائشة رضي الله عنها، وبوب عليه الإمام البخاري: (باب المكافأة في الهبة)،[4] بل إذا كان في قبول هدية المشرك مصلحة للإسلام، أو في استمالته إلى الإسلام، كان يقبلها.[5] روى الإمام البخاري في ذلك روايات عديدة، منها: أن ملك أيلة أهدى للنبي بغلة وبردا. وبوب عليها بقوله: (باب قبول الهدية من المشركين).[6]

المبحث الرابع: منهج الإمام البخاري في استنباط فقه السيرة في مسائل الآداب والفضائل:

إن نبينا الكريم بعثه الله خاتم النبيين والمرسلين، وسيد الأولين والآخرين. فكان جامع الآداب والفضائل والأخلاق العالية، فسيرته مليئة بالآداب والأخلاق، وقد شهد بذلك رب العالمين في محكم تنزيله: **{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}**[7]. وذكر النبي تكميل مكارم الأخلاق من

---

1 البخاري، صحيح البخاري، ج4 ص577-579 - 579 ، رقم الحديث : 2278-2281.

2 البخاري، محمد بن اسماعيل، الأدب المفرد، ط الرياض: دار المؤيد، الطبعة الأولى 1416هـ، باب قبول الهدية ، ص168 رقم الحديث : 607.

3 البخاري، صحيح البخاري ، ج4 ص249 .

4 المصدر السابق، ج5 ص262 ، رقم الحديث :2585.

5 العسقلاني،فتح الباري،ج5ص288 .

6 البخاري، صحيح البخاري ، ج5 ص287 .

7 القلم: 4.

مقاصد نبوته، فقال : "بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق".[1] وفي لفظ: "صالح الأخلاق"، وقد نشأ وتربى برعاية ربانية، فكان يمتثل بكل ما يحبه ربه، ويرضاه. ويبتعد عن كل ما يبغضه ربه، ويكرهه، فكان خلقه القرآن، كما شهدت بذلك أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها.[2] وقد استنبط الإمام البخاري رحمه الله من سيرته عديدا من الفضائل والآداب، وبثها في ثنايا كتابه الجامع الصحيح، وأقتصر هنا على بعض منها لضيق الوقت والمقام:

1. وكان صاحب خلق عظيم، قد شهد به أقرب الناس إليه، منهم أزواجه وأصحابه، ومن خدمه مدة من الزمن، وقد أورد الإمام البخاري جملة من أقوال هؤلاء، منها: ما رواه بصيغة الجزم عن ابن عباس: "كان النبي أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان". وأرسل أبو ذر رضي الله عنه أخاه إلى المدينة لما بلغه مبعث النبي ، فرجع، فقال:"رأيته يأمر مكارم الأخلاق"، وعن أنس أنه قال:"كان النبي أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس". ويقول أيضا: "خدمت النبي عشر سنين، فما قال لي أف، ولا لما صنعت؟, ولا ألا صنعت؟" ويقول جابر:"ماسئل النبي عن شيئ قط، فقال: لا" وبوب على هذه الأحاديث وغيرها الإمام البخاري بقوله: (باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل).[3] وقد شهدت بحسن خلقه، وكمال خصاله زوجته خديجة رضي الله عنها، وكانت تتحدث بالخصال الحميدة التي كان متصفا بها قبل المبعث، تُطَمئِنه بها لما خاف على نفسه في قصة بدء الوحي التي رواها الإمام البخاري في كتاب بدء الوحي، فقالت: "كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق".[4] وقد جمعت خديجة جميع أنواع أصول المكارم وأمهاتها في النبي ، لأن الإحسان يكون: إما إلى الأقارب، أو إلى الأجانب، وإما بالبدن، وإما

---

1 الشيباني، المسند، ج14 ص512 ، رقم الحديث :8952، الالباني، السلسلة الصحيحة، ج1 ص75 ، رقم الحديث :75.

2 الشيباني، المسند، ج41 ص148 ، رقم الحديث: 24601، وصححه محققوا المسند.

3 البخاري، صحيح البخاري ، ج5 ص558 ، رقم الحديث :6033-6038.

4 المصدر السابق، ج1 ص28 ، رقم الحديث : 3.

بالمال، وإما على شخص يستقل بأمره، أو على غيره،[1] بل قد شهد بمكارم أخلاقه أعداؤه، فهذا أبو سفيان وهو في حال كفره، يشهد لرسول الله بحسن خلقه، وكمال خصاله، أمام هرقل عظيم الروم، وهذه القصة ذكرها أيضا الإمام البخاري في كتاب بدء الوحي.[2]

2. كان نبينا الحبيب متصفا بالشجاعة، والجرأة في الحرب والقتال، ومن المعلوم أن الشجاعة في الحرب من صفات المدح، والجبن من الصفات المذمومة. وكان نبينا متصفا بجميع صفات المدح؛ فكان أشجع الناس في الحرب، ويكون مقدما في الجيش، وثابتا في الحرب الشديد، مطمئن القلب، ساكن الجأش، ومتيقنا بوعد الله سبحانه وتعالى له بالفوز والفتح، كما نقل البراء بن عازب رضي الله عنهما ما وقع لهم يوم حنين، وكيف ثبت رسول الله في ميدان الحرب. ولما سئل: "يا أبا عمارة أتوليت يوم حنين فقال: أما أنا فأشهد على النبي أنه لم يول، ولكن عجل سرعان القوم، فرشقتهم هوازن، وأبو سفيان بن الحارث آخذ برأس بغلته البيضاء، يقول: أنا النبي لا كذب– أنا ابن عبد المطلب".[3] ومرة سمع أهل المدينة صوتا مخيفا من إحدى نواحي المدينة؛ ففزع أهل المدينة؛ فخرجوا إلى هذا الصوت، فوجدوا رسول الله قد سبقهم على فرس لأبي طلحة، وقد كان خرج لوحده قبلهم، ويقول لهم راجعا إلى المدينة: "لم تراعوا لم تراعوا" ولما روى أنس رضي الله عنه هذه القصة يقول: كان النبي صلى الله عليه وسلم "أحسن الناس، وأشجع الناس وأجود الناس...". ذكر في هذا الحديث ثلاثة أشياء من صفات النبي وهي الأحسنية، والأشجعية، والأجودية، ويقول حكماء الإسلام: للإنسان قوى ثلاث: العقلية، والغضبية، والشهوية، فكمال القوة الغضبية الشجاعة، وكمال قوة الشهوية الجود، وكمال القوة العقلية الحكمة، وأشير إليها بالأحسنية، وهذه الثلاث هي أمهات الأخلاق.[4] وبوب عليها الإمام

---

1 انظر:العيني، عمدة القاري، ج1 ص114.

2 البخاري، صحيح البخاري ، ج1 ص42، رقم الحديث :7.

3 المصدر السابق، ج8 ص34 ، رقم الحديث : 4315.

4 انظر: العيني ،عمدة القاري، ج14 ص 165.

البخاري بأبواب عديدة: "باب الشجاعة في الحرب والجبن"، "باب مبادرة الإمام عند الفزع"، "باب السرعة والركض في الفزع"، "باب الخروج في الفزع وحده".[1]

3. كان زاهدا عن الدنيا، وزينتها، ومتيقنا بما وعده الله من النعيم السرمدي، والدرجات الرفيعة في الدنيا والآخرة، وهل فوقه درجة؟ بأن الله جعله سيد الأولين والآخرين، وإمام الأنبياء والمرسلين، والسيرة النبوية من أولها إلى آخرها تدل على زهده البالغ عن الدنيا، وعيشها الفاني، كما أمره الله سبحانه بقوله: (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى).[2] وقد ذكر الإمام البخاري رحمه الله جملة من سيرته عليه السلام التي تدل على زهده وعيشه في هذه الدنيا، فأذكر هنا إلى بعض الجوانب منها: ذكر الإمام البخاري رحمه الله بسنده عن عائشة ما يدل على عيشه الزهيد حيث قالت: "ماشبع آل محمد منذ قدم المدينة، من طعام بر ثلاث ليال تباعا حتى قبض"، وتقول أيضا: "كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه نارا"، وفي لفظ: "إن كنا لننظر إلى الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله نار"، فقيل: ما كان يعيشكم؟ قالت: "الأسودان: التمر والماء، إلا أن جيرانه من الأنصار، كان لهم منائح؛ فيرسلون إليه اللبن". وتقول أيضا: "كان فراش رسول الله من أدم، وحشوه من ليف"، ويقول جابر رضي الله عنه: "فما أعلم النبي رأى رغيفا مرققا، حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميطا بعينه قط"، وبوب على هذه الأحاديث الإمام البخاري في كتاب الأدب: "باب كيف عيش النبي وأصحابه وتخليهم عن الدنيا".[3] وقد ذكر الإمام البخاري في آخر كتاب المغازي في باب مرض النبي ووفاته: حديث عمرو بن الحارث أنه قال: "ما ترك رسول الله دينارا، ولا درهما، ولا عبدا، ولا أمة، إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه،

---

1 البخاري، صحيح البخاري ج6 ص151 ، 43، 152 ، رقم الحديث :2820، 2969،2968.

2 طه: 131.

3 المصدر السابق، ج11 ص339-344 ، رقم الحديث : 6453-6460.

وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة".[1] ثم ذكر بعده بباب حديث عائشة "توفي رسول الله ، ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير".[2]

هكذا كان عيش إمام الأنبياء والمرسلين، ورحمة للعالمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ فإنه لم يدخر من الدنيا شيئا، بل استقرض عند وفاته لأجل قوته، وطعام أهل بيته، فداه أبي وأمي.

4. إن أشد الناس بلاء الأنبياء، ومن أشدهم بلاء هو نبينا ؛ فقد لقيه من قومه كفار قريش ومن اليهود ومن قبائل العرب والمنافقين أذى كثيرا، ولكنه كان متحملا، وصابرا لجميع أنواع الأذى التي أصابها، وكان يقتدي في ذلك الأنبياء السابقين، كما أمره ربه بقوله: **{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ }**[3] وغير ذلك من الآيات الكثيرة، بل كان نبينا راضيا بكل ما قدره الله له في ذلك. وسيرته من مبعثه إلى وفاته كلها عبارة عن إيذاء الكفار والمشركين والمنافقين له ولأصحابه، فكم آذوه وأصحابه في مكة حتى أخرجوهم من بلدهم الحبيب! وكم جرى بينهم وبين أعدائهم من حروب، وقتال، وأنواع من الإيذاء! والإمام البخاري قد ذكر جملة كبيرة من سيرته ما يدل على ذلك، ويدل أيضا على عفوه عنهم خاصة في فتح مكة، ولكني أقتصر هنا في هذه العجالة على نبذة يسيرة منها:

1- يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "بينا رسول الله ساجد، وحوله ناس من قريش من المشركين، إذ جاء عقبة بن أبي معيط بسلى جزور، فقذفه على ظهر النبي ، فلم يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة رضي الله عنها، فأخذته من ظهره، ودعت على من صنع ذلك". ثم دعا النبي عليهم، حتى قتل هؤلاء الحاضرون من قريش يوم بدر إلى آخر القصة.[4]

2- ولما سئل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "أخبرني بأشد شيئ صنعه المشركون بالنبي ، قال: بينا النبي يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه،

---

1 البخاري، صحيح البخاري، ج8 ص187 ،رقم الحديث : 4461.

2 المصدر السابق، ج8 ص191، رقم الحديث : 4467.

3 الأحقاف: 35.

4 البخاري، صحيح البخاري، ج7 ص209 ، رقم الحديث : 3854.

فخنقه خنقا شديدا، فأقبل أبوبكر رضي الله عنه حتى أخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبي .[1] قال: **{أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ }**[2] وفي يوم أحد أنه شج وجهه، وكسرت رباعيته، وجرحت وجنته، ويروي أبو هريرة عن النبي : "اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه يشير إلى رباعيته". ويقول ابن عباس: عن النبي "اشتد غضب الله على من قتله النبي في سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دموا وجه نبي الله ". وبوب عليه الإمام البخاري في كتاب المغازي: "باب ما أصاب النبي من الجراح يوم أحد".[3] فيه دليل على أن الأنبياء يصيبهم بعض العوارض الدنيوية من الجراحات والآلام؛ ليعظم لهم الأجر والمثوبة، وتزداد درجاتهم، وليقتدي، ويتأسى بهم أتباعهم في الصبر على المكاره.[4] وأعظم إيذاء المنافقين لرسول الله هو ما آذاه رأس المنافقين عبد الله بن أبي، وهو الذي تولى كبر الإفك. بأن اتهم أهله، بل أحب زوجاته عائشة رضي الله عنها، وهل هناك إيذاء أشد من اتهام زوجته بالكذب والبهتان؟ وصار رسول الله من هذه الحادثة الشنيعة مهموما حزينا، أشد ما يحزن الإنسان، حتى قام على المنبر، فقال: "يامعشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت إلا خيرا، وما يدخل على أهلي إلا معي..." ثم أنزل الله سبحانه براءة عائشة من فوق سبع السموات؛ فجلد المتهمون، إلى آخر القصة التي ذكرها الإمام البخاري في مواضع في صحيحه، منها كتاب المغازي باب حديث الإفك.[5] ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه "لما قسم رسول الله غنيمة حنين، قال رجل من الأنصار: "ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي ، فأخبرته، فشق ذلك على النبي ، وتغير وجهه، وغضب، ثم قال: "رحمة الله على موسى، لقد

---

1 البخاري، صحيح البخاري، ج7 ص209-210 ، رقم الحديث :3856.

2 غافر: 28.

3 البخاري، صحيح البخاري، ج7 ص473 ، رقم الحديث : 4073، 4074.

4 انظر:العسقلاني، فتح الباري، ج7 ص474.

5 البخاري، صحيح البخاري، ج7 ص548-552 ،رقم الحديث :4141.

أوذي بأكثر من هذا، فصبر". وبوب عليه الإمام البخاري في كتاب الأدب: "باب الصبر في الأذى...". [1]

5.ونبينا الحبيب متصف بكل صفة جميلة، والتي تدل على فضائله الجمة، وقد أورد الإمام البخاري رحمه الله عديدا من هذه الصفات الكريمة، ولكني لضيق الوقت أذكر بعضا منها:

ما أخرجه البخاري رحمه الله في كتاب التفسير: "باب (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونديرا)" بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص:"أن هذه اللآية التي في القرآن: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) قال في التوراة: "يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو يصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء؛ بأن يقولوا لا إله إلا الله؛ فيفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا".[2] وذكر الإمام البخاري في كتاب المناقب بابا بعنوان: (صفة النبي) أورد فيه أحاديث كثيرة، معظمها يتعلق عن صفاته الخلقية، وعن صورته الجسدية المباركة، وفيها ما يتعلق عن سيرته وحياته وأخلاقه، منها حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: "كان النبي أشد حياء من العذراء في خدرها". وفي لفظ: "وإذا كره شيئا عرف في وجهه". وحديث أبي هريرة رضي الله عنه: "ما عاب النبي طعاما قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه".[3]

النتائج والاقتراحات

من خلال كتابة هذا البحث قد توصلت إلى نتائج مهمة وكثيرة، وأهمها ما يلي:

1. إن سيرة نبينا الكريم كما أنها محفوظة إلى يوم القيامة، أنها كافية وشافية للاهتداء والاقتداء بها لجميع الشؤون البشرية؛ لأنها جامعة وشاملة لجميع أبواب الدين.

---

1 البخاري، صحيح البخاري، ج10 ص627 ، رقم الحديث : 6100.

2 المصدر السابق،ج8 ص752، رقم الحديث : 4838.

3 المصدر السابق، ج6 ص702، رقم الحديث :3562-3563.

2. إن الإمام البخاري رحمه الله كان آية من آيات الله سبحانه النادرة في حفظ وضبط الأحاديث حيث إن الله حفظ به وبأمثاله من المحدثين سيرة نبينا الكريم من الضياع، وأنهم قاموا بخدمة سيرة الرسول الكريم وسنته خدمة عظيمة في تمييز صحيحها من ضعيفها ولا يوجد لها مثال في الأمم السابقة.

3. إن الإمام البخاري رحمه الله كما أنه كان محدثا عبقريا قام بتجريد الأحاديث والسيرة الصحيحة كان فقيها ومجتهدا من المجتهدين الكبار، وكان لهم جهود مباركة في استنباط الأحكام والمسائل والفوائد والعظات من الأحاديث ووقائع السيرة النبوية، بل كان له منهج دقيق ومتميز في الاستدلال والاستنباط حتى اشتهر بين العلماء: "فقه البخاري في تراجم أبوابه".

4. إن الجامع الصحيح للإمام البخاري مصدر مهم من مصادر فقه السيرة المباركة حيث يجد الباحثون بغيتهم في ذلك في جميع أبواب الدين، وقد استنبط الإمام القواعد والأصول في العقيدة كما استنبط أيضا الأحكام والنكات المهمة والفوائد الجليلة في العبادات والمعاملات والآداب، وقد ذكرتُ في هذا البحث نبذة مختصرة ما يتعلق بفقه السيرة في الجامع الصحيح كنموذج لا على سبيل الاستيعاب، والله أسال أن يوفقنا بالفقه في الدين والتبصير في الشريعة المطهرة والاهتداء بسيرة نبينا الكريم.